بسم الله الرحمن الرحيم

٨٢ — سُورَة الانفِطار

وهى مكية . وآيها تسعة عشر .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ)

[٢] (وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ)

[٣] (وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ)

[٤] (وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ)

[٥] (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)

« إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ » أى انشقت كما فى آية[1] (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَامِ) « وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ » أى تساقطت . والانتثار استعارة لإزالة الكواكب ، حيث شبهت بجواهر قُطِعَ سلكها . وهى مصرحة أو مكنية « وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ » أى فتح بعضها إلى بعض ، لزوال الحاجز بزلزلة الأرض وارتجافها « وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ » أى بحثت وأُخرج موتاها .

قال الشهاب : يعنى أزيل التراب التى ملئت به ، وكان حتى على موتاها فانفتحت وخرج من دفن فيها . وهذا معنى البعثرة . وحقيقتها تبديد التراب أو نحوه . وهو إنما يكون لإخراج شىء تحته فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً ، كما هنا . وقد يتجوّز به عن البعث والإخراج كما فى سورة العاديات . والفارق بينهما أنه أسند هنا للقبور فكان على حقيقته . وثَمَّ ، لما فيها ، فكانت مجازاً عما ذكر . ثم قال : وذهب بعض الأئمة كالزمخشرىّ والسهيلىّ إلى أنه مركب من كلمتين اختصاراً . ومثله كثير فى لغة العرب ويسمى نحتاً . وأصله (بعث) و(أثير) أى حرك وأخرج . وله نظائر كبسمل ، وحوقل ، ودمعز . أى قال بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

وأدام الله عزه. فعلى هذا يكون معناه النبش والإخراج معاً . ولا يرد عليه أن الراء ليست من أحرف الزيادة ، كما توهمه أبو حيان، فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين ، والزيادة على بعض الحروف الأصول من كلمة واحدة، كما فصّله فى (المزهر) نقلًا عن أئمة اللغة .

« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ » أى لذلك اليوم من عمل صالح أو سيئ « وَأَخَّرَتْ » أى تركت من خير أو شر. أو المعنى: ماقدمت من عمل طيب لم تقصر فيه، وما أخرت أى قصرت فيه . والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير ، وجدان الجزاء عليهما، وتحقق مصداق الوعد عليهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ)

[٧] (ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ)

[٨] (فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ » أى: أىّ شىء خدعك وجرّأك على عصيانه والانحراف عن فطرته. وذكر (ٱلْكَرِيمِ) للمبالغة فى المنع عن الاغترار. لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل فى نعوته . ومن كان كذلك فجدير بأن يرهب عقابه ويخشى انتقامه وعذابه . لاسيما وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد فى الرهبة ، كما قال « ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ » أى جعلك سويًّا متساوى الأعضاء والقوى. وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء. فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تتم به « فَعَدَلَكَ » أى جعلك معتدلًا متناسب الخلق ، معتدل القامة . لا كالبهائم . وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى المشدّد، أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة، مزتَ بها على سائر الحيوان « فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ » أى : فى أىّ صورة شاءها ركبك عليها . يعنى أنه ركّبك فى صورة هى أبدع الصور وأعجبها. فـ (أَىِّ) استفهامية. والمجرور متعلق بـ (رَكَّبَكَ) و (ما) زائدة ،

وجملة (شَآءَ) صفة (صورة) . والقصد أن من خلق هذا الخلق البديع وسوّاه وعدله بقدرته وتقديره، حتى أحكم صورته فى ذلك التركيب، لَجَدِيرٌ بأن يُتّقَى بأسه و يُحذر بطشه ويُرهب أشد الترهيب .

تنبيه :

قال الإمام ابن القيّم فى (الجواب الكافى) فى بحث كون القرآن من أوله إلى آخره صريحا فى ترتيب الجزاء بالخير والشر ، والأحكام الكونية، على الأسباب، ماتتمته: فليحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب ـ وهذا من أهم الأمور ـ فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرّة له فى دنياه وآخرته ، ولابدّ . ولكن تغالطه نفسه .

ثم ذكر من أنواع المغترّين من يغترّ بفهمٍ فاسدٍ ، فَهِمَهُ هو وأضرابه من نصوص القرآن والسُّنّة فاتكلوا عليه . قال : كاغترار بعض الجهّال بقوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ) فيقول : كرمه . وقد يقول بعضهم إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح . وإنما غرّه بربه الغَرور ، وهو الشيطان، ونفسه الأمّارة بالسوء ، وجهله وهواه . وأتى سبحانه بلفظ (ٱلْكَرِيمِ) ، وهو السيد العظيم المطاع الذى لاينبغى الاغترار به ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر (الغرور) فى غير موضعه، واغترّ بمن لاينبغى الاغترار به. انتهى .

وفى مثل هذا الغرور يجب ـ كما قال الغزالىّ ـ على العبد أن يستعمل الخوف . فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه ، مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب. وإنه ، مع أنه كريم ، خلد الكفار فى النار أبد الآباد . مع أنه لم يضرّه كفرهم . بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده فى الدنيا . وهو قادر على إزالتها . فمَنْ هذه سنته فى عباده ، وقد خوّفنى عقابه، فكيف لاأخافه؟ وكيف أغترّ به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل. فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور.

ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعى للآخرة، فذلك غرور. وقد روى أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك . فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله، يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويبكون على أنفسهم فى الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين . مع إكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى . زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته . كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينا ، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟

ثم قال : والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف . لايتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ، إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهذّونه هذًّا. يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها، وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب. لايهمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه . وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟ انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)

[١٠] (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)

[١١] (كِرَامًا كَاتِبِينَ)

[١٢] (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)

« كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ » قال الإمام : أى لا شىء يغرك ويخدعك . بل إن

سعة عطاء ربك وحكمته فى كرمه، تدلك وتوحى إلى نفسك أنك مبعوث فى يوم آخر، لثواب أو عقاب . وإنما الذى يقع منك، أيها الإنسان، هو العناد والتكذيب بالدين. أى الجزاء، أى الانصراف عمدا وعنادا عما يدعو إليه الشعور الأول، وعن الدليل الذى تقيمه الرسل، والحجة التى يأتى بها الأنبياء . مع أن الله تعالى لم يترك عملا من أعمالك إلا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه ، كما قال « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » أى رقباء يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم « كِرَاماً كَاتِبِينَ » أى يكتبون ما تقولون .

« يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » أى من خير أو شر. أى يحصونه عليكم، فلا يغفلون ولا ينسون

قال الرازىّ : إن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم. لأن ذلك أبلغ فى تقرير المعنى عندهم . ولما كان الأبلغ عندهم فى المحاسبة إخراج كتاب بشهود ، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة . فيخرج لهم كتب منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم ، كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره . فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا ، وفعل بك كذا وكذا ، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا . فكذا هاهنا . والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعملهم ، من الغيب الذى لا يمكن اكتناهه . فيجب الإيمان به ، كما ورد . مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى . ومن الفضول فى العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر وتسويد وجوه الصحف بها . وبالله سبحانه التوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ)

[١٤] (وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ)

[١٥] (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ)

[١٦] (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ)

[١٧] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ)

[١٨] (ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ)

[١٩] (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ، وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ)

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ » قال ابن جرير[1] : أى إن الذين برّوا بأداء فرائض الله ، واجتناب معاصيه ، لفى نعيم الجنان ينعمون فيها .

والأبرار جمع (برّ) بفتح الباء وهو المتصف بالبِرّ (بكسرها) أى الطاعة . قال الأصفهانىّ : وقد اشتمل عليه قوله تعالى[2] (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ، وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ) . وقوله تعالى: « وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ » أى الذين فجروا عن أمر الله . أى انشقوا عنه وخالفوه . وهم من لم توجد فيهم نعوت الأبرار المذكورة فى الآية قبلُ « يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ » أى يوم يدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها « وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ » أى بخارجين ، لأنهم مخلدون فى صليها . وقوله تعالى « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ » تفخيم لأمر ذلك اليوم وتعظيم لشأنه . أى أىُّ شىء أعلمك به ؟ أى أنت لا تدريه مع أنه من أوجب ما تهمّ درايته والبحث عنه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

والخطاب للإنسان المتقدم أول السورة . ثم فسّر تعالى بعض شأنه بقوله « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا » أى من دفع ضُرّ أو كشف هَمّ « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ » أى أمر الملك الظاهر ، ونفوذ القضاء القاهر ، يومئذ لله وحده . لاضمحلال الممالك وذهاب الرياسات .

قال الرازىّ : وهو وعيد عظيم ، من حيث إنه عرّفهم أنه لا يغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يغنى عنهم فى الدنيا ، من مال وولد وأعوان وشفعاء .